يتناول فكرة الإعجاز حيث يقرر عجز العرب المعاصرين للرسول ـ ﷺ ـ دون المتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمانه، وعلى هذا الأصل ينتقل عبد القاهر إلى النظر فى دلائل أحوال العرب وأحوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا فيه.

أما الأحوال فدلالتها من حيث كان المتعارف من عادات الناس ألا يسلّموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها، وهو فى سبيل ذلك يستشهد بالشعر المعروف عند العرب.

ويذكر لذلك أقوالاً مأثورة عن العرب منها حديث ابن المغيرة، وحديث عتبة بن ربيعة، وحديث أبى ذر.

وينتهى إلى أن القرآن معجز ناقض للعادة وأنه فى معنى قلب العصا حيةً، وإحياء الموتى فى ظهور الحجة على الخلق كافة.

وهو فى سبيل ذلك يذكر أمثلة أدبية بليغة، وذلك من أجل إثبات حقيقة الإعجاز فى القرآن الكريم، ويذكر ذلك إيجازاً لأنه فصله تفصيلا فى كتابه (دلائل الإعجاز).

ونقف أمام نص من نصوص عبد القاهر فى (الرسالة الشافية فى الإعجاز)، يقول: «ومما يُحيل أن يكون التحدى قد كان إلى ما ذكروه، ومع الشرط الذى توهموه، أن العرب قد كانت تعارض المعارضة ما هى وما شرطها فلو كان النبى ـ ﷺ ـ قد عدل بهم فى تحديه لهم إلى مالا يطالب بمثله، لكان ينبغى أن يقولوا: إنك قد ظلمتنا وشرطت فى معارضة الذى جئت به مالا يشترط، أو ما ليس بواجب أن يشترط وهو أن يكون النظم الذى تعارض به فى أنسب معانى هذا الذى تحديت إلى معارضته، فدع عنا هذا الشرط ثم اطلب فإنا نريك حينئذ مما قاله الأولون، وقلناه وما نقوله فى المستأنف ما يوازى نظم ما جئت به فى الشرف والفضل ويضاهيه، ولا يقصر عنه، وفى هذا كفاية لمن كانت له أذن تعى وقلب يعقل».

وينهى رسالته تلك بقوله:

«قد تم الذى أردته فى جواب سؤالهم، وبان بطلانه، بما لا يبقى معه، إن شاء الله، لناظر، إذا هو نصح نفسه وأذكى حسه، ونظر نظر من يريد الدين،